وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

شمول الرحمة وعمومها في الإسلام

اسم الباحث/ـة

د/ محمد بلحسان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فلما أشرق نور الإسلام ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[1] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[2] ومثيلاتهما من الآيات؛ تجلى عصر الرحمة، وأظل زمن الرأفة والرقة، فتحررت الإنسانية من سلطان القسوة والغلظة، ومن شريعة البأس والشدة، فسقطت الأغلال، وحُطت الآصار، وسمع الناس قول الرحمن الرحيم : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.[3]وسمعوا قول نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا». قالوا: بلى يا رسول الله، كلنا رحيم. قال: «إنه ليس برحمة أحدكم خاصته، ولكن رحمة العامة»[4].

آنذاك فهم المسلمون أن الرحمة حق للجميع، وأنها من صميم الدين، ومحلها منه محل القطب من الرحى.

فكان ظهور الإسلام إيذانا بتجلي رحمة الله على عباده، تلبية لحاجة ملحة للبشرية جمعاء، بعد قرون من تنازع الأهواء، وتجاذب الأفكار والأمزجة، وتحجر القلوب، وتخشب المشاعر، وتحكم القسوة والغلظة، فاختلت بذلك الأنظمة والنواميس، واضطربت الأوضاع والمقاييس، فاستحقت البشرية المقت الإلهي، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧

[2] سورة يونس، الآية: ٥٧

[3] سورة البقرة، الآية: ١٨٥

[4] رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب القضاء، رقم: ٥٩٢٨، والحاكم في مستدركه، رقم: ٧٣١٠. وقال الذهبي: صحيح. واللفظ للنسائي

عجمهم وعربهم»[1].

فوافت رسالة الإسلام أهل الأرض وهم أحوج ما كانوا إليها، فبعث الله النبي على فترة من الرسل لإنقاذ البشرية من الأوهام التي أركسوا فيها، والدماء التي سفكوها، والعداوة التي التهمت كل معاني الخير في نفوسهم، واجتثت كل ينابع المودة والرحمة في قلوبهم.

وإن الناظر في المصدرين الأصليين للإسلام: «القرآن والسنة»، ومصادر التشريع عموماً، وتاريخ الأمة، وفكرها، وثقافتها، وآدابها، وعادتها، وتقاليدها؛ يجد الرحمة حاضرة ومسيطرة على مفاصل الثقافة والفكر الإسلاميين، لا تغيب عنهما في أي مجال من مجالات الحياة، تربعت في عقول المسلمين، وقبعت في وجدانهم، فالمربي يستحضر الرحمة في تربيته، والفقيه يستحضرها في فقهه، والحاكم يستحضرها في حكمه، والقائد العسكري يستحضرها في حربه، والتاجر في تجارته....فتأثرت الثقافة الإسلامية بالرحمة، وبرزت في حضارتها، وامتزجت بفكرها، وأصبحت هي المهيمنة والموجهة للعقلية الإسلامية، تتوخاها في كل مناح الحياة.

فهذا القرآن الكريم طافح بالحديث عن الرحمة، زاخر بتمجيدها، حاض على التخلق بها، فقد ترددت كلمة الرحمة بمختلف تصاريفها في القرآن الكريم حوالي ثلاثمائة وتسعة وستين مرة.

ولا غرابة بعد ذلك أن نجد الله عز وجل سمى نفسه بالرحمن وبالرحيم، وكتب على نفسه الرحمة، ووسعت رحمته كل شيء، وبعث نبيه رحمة للعالمين.

وإذا انتقلنا إلى السنة فإننا نجدها مفعمة ومترعة بالحديث عن الرحمة، مشيدة بها، حاضة عليها، داعية إلى التمسك بها بأساليب وصيغ وسياقات مختلفة، حتى سمى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بنبي الرحمة، عن أبي موسى الأشعري

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: ٢٨٦٥.

-رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسمي نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[1].

كل هذا صبغ وطبع الإسلام بطابع الرحمة، فانصهرت فيه، واتحدت معه، وأصبحت جزءا لا يتجزأ منه، وما نالت الرحمة هذه المنزلة في الإسلام إلا لأنها ركيزة من ركائز الحياة، وأساس من أسسها، لا تطاق الحياة بدونها، ذلك أن الحياة إذا خلت من المعاني السامية التي تناط بها منافع ومصالح الناس صارت حياة قاحلة مجدبة، لا تطاق قسوتها، ولا يتحمل الإنسان مشاقها وتبعاتها، فالإنسان بلا رحمة جسد بلا روح وقشر بلا لب.

فالرحمة صفة كمال في المخلوق، أوتيها السعداء، وحرمها الأشقياء، بها تتوطد أواصر المحبة، ويشفق القوي على الضعيف، ويرق لآلام التعساء، ويتأثر بأنين البؤساء، فيهب لإنقاذهم وإسعادهم، وهي في الأزمات والنكبات بلسما شافياً للجراح ونسيمًا عليلاً، تنتعش به الصدور وتستأنس به القلوب.

كيف لا تكون كذلك، وهي كما عرفها الجرجاني: «إرادةُ إيصال الخير»[2]، أو كما قال ابن القيم: «صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح للعبد»[3].

فالرحمة ليست شعوراً سلبياً جامداً ينحصر في التألم والتحسر، بل تقتضي السعي لإزالة ذلك وتغييره.

-بين عالمية الإسلام وعالمية الرحمة:

مما امتاز به الإسلام عن سائر الديانات السماوية السابقة، والديانات الأرضية اللاحقة، الشمول والعموم والبقاء والخلود، فهو دين لا يختص بفئة، أو جنس، أو لون، أو مكان، أو زمان، فالكل مخاطب به، ملزم بالفيء إلى ظله، والتزام أحكامه، إذ هو دين البشرية الخالد والباقي إلى قيام الساعة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم: ٢٣٥٥.

(٢) التعريفات (ص: ١١٠). دار الكتاب العربي – بيروت

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٤). دار المعرفة – بيروت

فالنصوص متظافرة على أن الإسلام دين عالمي، جاء للبشرية جمعاء، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1].وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. [2]

وقوله كذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[3]

فالقرآن نذير لكل العالمين، والرسول بعث للناس جميعاً، وأرسل لكافة الناس، «فجميعاً»، «وكافة»، تؤكد عموم رسالة الإسلام وشمولها لكل الناس، بل إن لفظة: «كافة» في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً)، من ألفاظ العموم، يوصف بها العاقل وغير العاقل.

فإذا كان الإسلام دينا عالمياً وشاملاً، والرحمة من ماهيته وحقيقته التي لا يعرف إلا بها، فإن الرحمة تكون كذلك عالمية وشاملة لكل الخلق، بهذا نطق القرآن الكريم، ووُصِف النبي الأمين، عندما حصر الله عز وجل وقصر رسالته في الرحمة، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[4]

- **شمول الرحمة لكل العوالم:**

فرحمة الإسلام عامة وشاملة ومستغرقة لكل العوالم بدون استثناء[5]، سواء المكلفة، أو غير المكلفة، وإن تفاوت المكلفون واختلفوا في مقدار استفادتهم من هذه الرحمة باختلاف قربهم أو بعدهم من الإسلام، وباختلاف تمسكهم

---

[1] سورة الأعراف: ١٥٨

[2] سورة الفرقان، الآية: ١

[3] سورة سبأ، الآية: ٢٨

[4] سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧

[5] اختلف العلماء في هذه المسألة فمنهم ضيق وحجر واسعا فقال: هي خاصة بالمؤمنين فقط ، وهو قول زيد بن علي . يذكره عنه العلماء على سبيل التنبيه على ضعفه. ومنهم من قال هي شاملة للمكلفين سواء كانوا مؤمنين أو كافرين. ومنهم قال بأنها عامة وشاملة لكل العوالم المكلفة وغير المكلفة ، وهذا هو المختار كما سأبينه إن شاء الله . وبه قال مجموعة من العلماء.

به، أو تفلتهم منه، لكن الكل ينال حظا ما من الرحمة، هذا الأمر دل عليه القرآن الكريم، وسنة النبي الأمين، وفقه الأمة، وتاريخها.

فالدليل من القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]

فكلمة: «عالمين»، تشمل كل ما يطلق عليه اسم عالم. قال ابن منظور: «العالَمُون: أصناف الخَلْق، والعالَمُ: الخَلْق كلُّه. وقيل: هو ما احتواه بطنُ الفَلك... وفي التنزيل: (الحمد لله ربِّ العالمين)، قال قتادة: رب الخلق كلهم... وقال الزجاج: معنى العالمينَ: كل ما خَلق الله، كما قال: (وهو ربُّ كل شيء)[2]. وجذر الكلمة المكون من العين، واللام، والميم، [أصلٌ صحيح، واحد يدلُّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره.... ومنه: العالَمُون، وذلك أنّ كلَّ جنسٍ من الخَلْق فهو في نفسه مَعْلَم وعَلَم][3].

إذاً «العالمين»: جمع عالم، والمقصود الجنس من أجناس الموجودات، تقول: عالم الإنس، عالم الملائكة، عالم الجن، عالم الحيوان، عالم النبات، عالم الجماد...

وعليه، فإن لفظة: «العالمين» في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ بوضعها اللغوي تشمل وتستغرق كل العوالم على اختلاف أجناسها،

وهذا تدل عليه أمور منها:

١-أن لفظة: «العالمين» عُرِّفت بـ:(أل) الجنسية، وهذا أكسبها الشمول والاستغراق لكل ما يصدق عليه اسم العالم، فقد عَدّ أهل اللغة، وأهل أصول الفقه: «أل» الجنسية من صيغ العموم وأدوات الاستغراق والشمول[4]، فإذا دخلت على الاسم استغرق وشمل كل ما يطلق عليه.

وهذا ما اختاره الطاهر بن عاشور عندما قال: «والتعريف في (**العالمين**)

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧

[2] لسان العرب (١٢/ ٤١٦) دار صادر – بيروت

[3] معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ١٠٩). دار الفكر

[4] البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٧٥٧) دار الكتب العلمية – لبنان/ والأشباه والنظائر للسبكي (٢/ ١٢١) دار الكتب العلمية

لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم»[١].

٢-أن صيغة الجمع قرينة قوية على الشمول والاستغراق، فلو بقي مفرداً لدخل عليه احتمال قصد العهد، أو غير ذلك، فكانت صيغة الجمع نصاً على استغراق كل العوالم، قال الزمخشري: «فإن قلت: لم جمع؟ قلت: ليشمل كل جنس مما سمي به»[٢]. وقال البيضاوي: «ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة»[٣].

٣-لقد اتفق المفسرون -بل المسلمون جميعاً- على: أن الله رب لكل العوالم، بدليل قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين)، فليس هناك جنس مستثنى من المربوبية لله، «والأصل بقاء اللفظ على عمومه حتى يدل الدليل على إخراج شيء منه، ولم يدل هنا دليل ولا سبيل إلى وجوده لا من القرآن ولا من الحديث»[٤]، فالله تعالى رب لكل العالمين، وأرسل نبيه رحمة لكل العالمين.

الدليل من السنة:

إن الناظر في سنة النبي صلى الله عليه وسلم يجدها كلها دليلاً على شمول وعموم رحمة الإسلام، فكل أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تتغي الرحمة، وتقصدها حتى استحق بذلك اسم: «نبي الرحمة»، بل صار هو عين الرحمة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا رحمة مهداة»، فهو صلى الله عليه وسلم بعث من أجل الرحمة، وهو رحمة أنقذ الله به البشرية من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، فلانت القلوب، ورققت الأفئدة، وهب نسيم الرحمة على الكون، وما ذلك إلا لأنه كرس جهوده لتحقيق هذا المبتغى، فنوَّع الخطاب ولوَّنه، واستغل كل مناسبة لترسيخه وتثبيته. فمرةً يأمر بالرحمة ويمزج الأمر بتهديد من لا يعير الأمر اهتماماً، من ذلك

---

[١] التحرير والتنوير (١٦٧/١٧). مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي).٥٤ (١/ الكشاف[٢]

[٣] تفسير البيضاوي (١/ ٢٨). دار الفكر

[٤] كتاب الكليات لأبي البقاء الكفوي(ص: ١٠١٣). مؤسسة الرسالة

قوله صلى الله عليه وسلم: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ[1]، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».[2]

ومرةً يأمر بها عن طريق تبيين فضلها وثمرتها، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[3]. ومرةً يصور حال من لم ينل حظه من الرحمة في أبشع صور، ويصفه بالحرمان والهلاك، فيقول: «خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر»[4]، أي: حرم، وهلك. ومرةً يحكم على أصحاب القلوب القاسية والمشاعر الجافة بالشقاء، من ذلك ما روي عن أبي هريرة أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق، أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي».[5]

وهذه النصوص التي سُقتها جاء الحديث فيها عن الرحمة بصفة عامة وشاملة، نعم خص النبي صلى الله عليه وسلم المجتمع المسلم عموماً، والفئات الضعيفة في المجتمع، كالنساء والأطفال، والشيوخ، والأيتام، والأرامل، خصهم بالنصيب الأوفر من حديثه عن الرحمة، وحذر من استعمال القسوة والشدة معهم، أو مع غيرهم.

وبما أنه ليس من عزائم هذه الورقة، ولا من أهدافها تفصيل القول في رحمة الإسلام بالمؤمنين، ولا بالفئات الضعيفة والهشة منهم، فإني سأمسك بزمام

---

(١) الأقماع بفتح الهمزة، جمع قمع بكسر ففتح، لمن لا يعي أمر الشارع، ولم يتأدب بآدابه، شبه من لا يعي القول بأقماع الأواني التي تجعل على أفواهها، ويصب فيها، فإنها لا تدرك شيئاً مما يصب في أوانيها، لمروره عليها مجتازا، أي: يجعل بينه وبين فهم الكلام حاجبا عن الفهم، أو العمل. أنظر: التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٢٨٢).

(٢) مسند أحمد بن حنبل في مسند عبد الله بن عمرو رقم ٦٥٤١

(٣) مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، رقم: ٦٤٩٤، وسنن أبي داوود، أول كتاب الأدب باب في الرحمة، رقم: ٤٩٤١.

(٤) كنز العمال رقم : ٥٩٨٤ (٣/ ٣٠٨) مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٩

(٥) سنن أبي داود كتاب الآداب باب في الرحمة رقم ٤٩٤٢

القلم عند هذا الحد وأنتقل للتفصيل في عموم رحمة الإسلام لكل العوالم، والتدليل عليه، وهذا لن يتطلب مني جهدا، إن شاء الله فأدلته واضحة، وحججه لائحة بفضل الله.

- رحمته بعالم الملائكة:

لقد تحدث العلماء عن رحمة الإسلام بعالم الملائكة، وتوسعوا في ذلك، ومما قالوه: أن جبريل – عليه السلام – كان يخشى العاقبة، حتى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[1] فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن[2].

وهذه المسألة لا عمل تحتها، ولا تكليف يترتب عليها، وقد قال الشاطبي: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعنى بالعمل عمل القلب، وعمل الجوارح من حيث

---

[1] سورة التكوير، الآية: ٢٠

[2] قال الألوسي: (وهل يراد بالعالمين ما يشمل الملائكة عليهم السلام أيضا، فيه خلاف مبني على الخلاف في عموم بعثته صلى الله عليه وسلم لهم، فإذا قلنا بالعموم، كما رجحه من الشافعية البارزي، وتقي الدين السبكي، والجلال المحلي في خصائصه، ومن الحنابلة ابن تيمية، وابن حامد، وابن مفلح في كتاب الفروع، ومن المالكية عبد الحق، قلنا بشمول العالمين لهم هنا، وكونه صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة بالنسبة إليهم؛ لأنه جاء عليه الصلاة والسلام أيضا بما فيه تكليفهم من الأوامر والنواهي، وإن لم نعلم ما هنا، ولا شك أن في امتثال المكلف ما كلف به نفعا له وسعادة. وإن قلنا بعدم العموم، كما جزم به الحليمي، والبيهقي، والجلال المحلى في «شرح جمع الجوامع»، وزين الدين العراقي في نكته على ابن الصلاح من الشافعية، ومحمود بن حمزة في كتابه «العجائب والغرائب» من الحنفية، بل نقل البرهان النسفي، والفخر الرازي في «تفسيريهما» الإجماع عليه. وإن لم يسلم، قلنا بعدم شموله لهم هنا، وإرادة من عداهم منه.. وقيل: هم داخلون هنا في العموم. وإن لم نقل ببعثته صلى الله عليه وسلم إليهم؛ لأنهم وقفوا بواسطة إرساله عليه الصلاة والسلام على علوم جمة وأسرار عظيمة مما أودع في كتابه الذي فيه بناء ما كان وما يكون عبارة وإشارة، وأي سعادة أعظم من التحلي بزينة العلم؟ وكونهم عليهم السلام لا يجعلون شيئا مما لم يذهب إليه أحد من المسلمين. وقيل: لأنهم أظهر من فضلهم على لسانه الشريف ما أظهر.) روح المعاني ١٠٥/١٧ دار إحياء التراث العربي

هو مطلوب شرعا»[1]، فالحديث عن هذه المسألة وشبيهاتها داخل في الترف العلمي، لأجل ذلك رأيت أن لا أخوض فيها.

- **رحمته بعالم الإنس:**

إن الحديث عن رحمة الإسلام بعالم الإنس يتطلب التفصيل والتوضيح، ولا يقبل فيه الإيجاز والإجمال، فعالم الإنس فيه المؤمنون وغير المؤمنين، وغير المؤمنين، فيهم المقيمون في بلاد الإسلام «الذميون»، وفيهم الداخلون إليها بعهد وأمان «المعاهدون»، وفيهم المحاربون، وبما أن الورقة لا تعنى بالمؤمنين، فسأبدأ بالحديث عن غير المؤمنين.

وقبل ذلك لابد من الإشارة إلى أن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن غير المؤمنين لهم حظ من رحمة الإسلام، وقد سبقت الإشارة إليه، وفسروا ذلك الحظ بما روي عن ابن عباس بتأخير العذاب عنهم، فقد قال: «عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم من مسخ، وخسف، وغرق، وقذف، وأخر أمره إلى الآخرة»[2]. واعتبر هذا من الرحمة بهم. وهذا الأمر صحيح، لكن رحمة الإسلام بغير المؤمنين أوسع من ذلك بكثير، وسأوضحه بحسب ما تسمح به هذه المداخلة، وسأبدأ بالحديث عن المقيمين في بلاد الإسلام، ويدخل معهم بالتبع أهل العهد والأمان.

- **رحمة الإسلام بأهل الذمة:**

وهم غير المسلمين المقيمين في بلاد الإسلام، بقوا على دينهم، وتربطهم بالمسلمين آصرة أمان واتفاق، تضمن لهم ما يسمى الآن حق المواطنة. وقد جرى العرف بتسميتهم بأهل الذمة.وهي «العهد؛ لأن نقضه يوجب الذم، وتفسر بالأمان والضمان... ومنها: قيل للمعاهد من الكفار ذمي؛ لأنه أومن

---

[1] الموافقات (٤٣/١). دار المعرفة

[2] تفسير الطبري (١٨/ ٥٥٢) مؤسسة الرسالة

على ماله ودمه... وفي الصحاح: الذمة أهل العقد»[1]. وسموا بذلك لأنه لهم عهد الله، وعهد رسله، والمسلمين جميعا.

وقد تجلت رحمة الإسلام بهؤلاء وظهرت في مجالات عدة ومواطن كثيرة دفعتهم لاختيار الإقامة في بلاد المسلمين على غيرها من البلدان، ومن حرصهم على ذلك أنه إن اضطر المسلمون للخروج من بلد ما لتغلب غير المسلمين عليها، فإنهم كانوا يخرجون مع المسلمين،

وكمثال على ذلك ما ذكره أهل التاريخ: من أن اليهود الذين كانوا في بلاد الأندلس يعيشون في ظل الحكم الإسلامي، لما سقطت الأندلس، وفتحت محاكم التفتيش، وأجبر الناس على تغيير معتقدهم، اختاروا الهجرة مع المسلمين إلى حكم الإسلام، فبعضهم استقر ببلاد المغرب، وبعضهم ذهب لمركز الخلافة العثمانية بإسطنبول، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثقة هؤلاء في حكم المسلمين، ورحمة الإسلام بهم[2].

وما كان لهؤلاء أن ينعموا برحمة الإسلام، ويسعدوا في ظل حكمه لو لم تكن الرحمة من صميم الإسلام ومن مقاصده الكبرى التي يسعى ليسعد بها كل المخلوقات، وحتى لا يبقى الكلام عاما نذكر نماذج من رحمة الإسلام بهؤلاء.

- **فمن رحمة الإسلام بغير المؤمنين:** أنه أقرهم على معتقداته، ولم يكرهم، أو يلزهم تغييرها، قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[3]

فغير المسلم الذي يعيش في ظل الحكم الإسلامي يضمن له الإسلام حق البقاء على دينه الذي كان عليه، ولا يلزمه تغييره إلا إذا قبل ذلك عن طيب خاطر وقناعة تامة، لأجل ذلك شدد العلماء النكير على بعض الحكام الذين أجبروا أهل الذمة على تغير دينهم إلى الإسلام، وحكموا ببطلان ذلك الفعل،

---

[1] أنيس الفقهاء (ص: ١٨٢). دار الوفاء

[2] أنظر تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص٢٤١

[3] سورة البقرة، الآية: ٢٥٦

كما هو الشأن مع الأمير المملوكي السلطان قلوون الذي فرض على أهل الذمة الدخول في الإسلام، فاجتمع الفقهاء، وقرروا بطلان فعله، وأجازوا لأهل الذمة الرجوع إلى دينهم إن شاءوا[١].

-**ومن رحمة الإسلام بغير المسلمين:** أن شرع حسن معاملتهم، والبر إليهم، قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢]

والبر هو التوسع في الإحسان والرفق، وحسن المعاملة، وهو جماع الخير، ومن ثم حرم ظلمهم: قال صلى الله عليه وسلم: «من آذى ذميًّا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[٣].وقال: «من ظلم معاهدا، أو كلفه فوق طاقته، فأنا خصمه يوم القيامة»[٤].

وعند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما»[٥].

وأمر بحفظ كرامتهم، وأموالهم، وأعراضهم، وحمايتهم من كل أنواع الاعتداء، فقد وردت بذلك نصوص كثيرة، وأفاض الفقهاء في تفصيلها، وحيث أن المقام لا يسمح بالتوسع أكتفي بهذه الكلمة الجامعة للفقيه المالكي القرافي رحمه الله، حيث قال: «أن عقد الذمة يوجب حقوقا علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا، وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من

---

[١] حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام للدكتور صالح بن حسين العايد ص: ٣٢.كنوز إشبيليا

[٢] سورة الممتحنة، الآية: ٨

[٣] جامع الأحاديث (١٩/ ٤٦١)، أخرجه الخطيب (٨/٣٧٠)، وقال ـ وقد ذكر حديثًا قبله ـ : هذان الحديثان منكران بهذا الإسناد.

[٤] جامع الأحاديث (٢٨/ ٢١١)

[٥] صحيح البخاري كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم، رقم: ٦٩١٤.

أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام.

وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك؛ صونا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، وحكى في ذلك إجماع الأمة»[1].

وقد تُرجمت هذه النصوص وهذه الأحكام الفقهية الإسلامية على أرض الواقع، فالمتصفح لكتب التاريخ يجد أمثلة واضحة لحماية ورعاية هذه الفيئة من المجتمع، وقد سجل التاريخ والواقع بأن أسعد الأقليات في العالم كله هم الذين عاشوا في ظل الإسلام والمسلمين، فقد نالوا نفس المعاملة ونفس العناية التي نالها المسلمون، ولم يكن هناك تمييز بينهم وبين باقي المسلمين مع الحفاظ على خصوصياتهم، وهنا أضطر لاستحضار مثال من التاريخ يدل على ذلك، فقد ذكر ابن تيمية في الرسالة القبرصية: أنه لما فاوض التتار على إطلاق المسلمين قبلوا إطلاق المسلمين فقط، فرفض ابن تيمية ذلك، وأصر على إطلاق المسلمين ومن معهم من اليهود والنصارى، فقال: «فَقُلْت لَهُ: بَلْ جَمِيعُ مَنْ مَعَك مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ ذِمَّتِنَا، فَإِنَّا نفْتكهُمْ وَلا نَدَعُ أَسِيرًا لا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ. وَأَطْلَقْنَا مِنْ النَّصَارَى مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَهَذَا عَمَلُنَا وَإِحْسَانُنَا وَالْجَزَاءُ عَلَى اللَّهِ»[2].هذه رحمة الإسلام بغير المسلمين، يحميهم من كل مكروه، ومن كل سوء، ولا يلزمهم بشيء يخالف دينهم، فقد حافظ على خصوصياتهم، بل بإمكاننا أن نقول بأنه كان لهم حكم ذاتي يتمتعون به في ظل الدولة الإسلامية، فقد كانوا يطبقون أحكامهم في الزواج،

---

[1] أنوار البروق في أنواء الفروق (٤/ ٣٩٨).

[2] الرسالة القبرصية (ص: ٤٦).

والطلاق، والميراث، والذبائح، والأطعمة، وتناول ما لا يعد محرما عندهم، كالخمر، والخنزير...

- **رحمة الإسلام بالأعداء المحاربين:**

إن الحديث عن رحمة الإسلام بغير المسلمين: «أهل الذمة»، أمر قد يستبعده البعض، لكن العقل يستسيغه، والمنطق يقبله، إلا أن الحديث عن الرحمة في الحرب، ومع المحاربين، أمر مستغرب، ومستبعد؛ إذ كيف نتحدث عن الرحمة في ساحة تزهق فيها الأرواح، وتقطف فيها الرؤوس؟

لكن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين، يفرض أحكامه في السراء والضراء، والمنشط والمكره، وفي القتل والقتال، فأحكامه حاضرة في كل الأحوال والظروف، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يوصي جيشه المتأهب للرحيل في غزوة مؤتة، يقول لقائده أسامة بن زيد: «لا تقتلن امرأة، ولا صغيرًا رضيعًا، ولا كبيرًا فانيًا»[1]. وانسجامًا مع هذا التوجيه الكريم، سار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث قال في هذا السياق لجيوشه المتوجهة لفتح الشام: «لا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيرًا، إلا لمأكلة»[2].

ومن هذا المنطلق تأسست أحكام الحرب والسلم في الإسلام، وتوسعت لتشمل السير والمغازي، والذي يقصد به ما يعرف الآن بالعلاقات الدولية، فكانت الرحمة حاضرة في هذا كله، ومن تجلياتها الجنوح للسلم، والوفاء بالعهد، وعدم الغدر، وحماية ما يسمى الآن بالمدنيين، وعدم الاعتداء عليهم، فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى: أنه يحرم في الجهاد قتل النساء، والصبيان، والمجانين، والشيوخ الكبار، والمرضى، وأصحاب الصوامع المتفرغين للعبادة، والفلاحين، والرعاة، ما لم يكن لهم دور في الحرب، أو يعينوا عليها بشكل من الأشكال.

---

(١) سنن أبي داوود، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، رقم: ٢٦١٤.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ١٩٦)

وحرم الإسلام كذلك هدم المباني، وإحراق الزروع، والثمار، إلا إذا دعت الضرورة لذلك، ولم يكن منه بد، وبإذن الإمام من طبيعة الحال.

وكل هذا وردت به النصوص المؤصلة والمؤسسة له، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره، نستحضر نهي الرسول عن قتل النساء، وقد «وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»(١). وقد روي عنه أنه قال: «لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا امرأة»(٢). وقد قال ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾، قال: «لا تقتلوا النساء والصبيان، والشيخ الكبير»(٣).

ومن مظاهر رحمة الإسلام بالأعداء المحاربين النهي عن الإجهاز على الجرحى، أو التمثيل بجثثهم، وعدم إهانة الأسرى، أو تعذيبهم حتى يختار الإمام ما يراه مناسباً في حقهم.

وقد صرح بهذا علي- رضي الله عنه- يوم الجمل، حين قال: «لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، وإياكم والنساء، وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم»(٤). بهذه الرحمة ملك الإسلام قلوب أعدائه المنصفين، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

-رحمة الإسلام بعالم الحيوان:

الحيوان خلق من خلق الله، تسيطر عليه الغرائز، وتتحكم فيه، ورغم ذلك فإن له مشاعرَ وأحاسيسَ وإدراكاً، يتلذذ ويتألم، بعضه أليف يعيش مع الإنسان، وبعضه متوحش يعيش في البراري والقفار، أو البحار، والكل ضعيف أمام قدرة الإنسان الذي ميزه الله بالعقل، وخصه بالذكاء، يستطيع بهما أن يتحكم في كل الحيوانات، فيروضها، ويعتني بها، ويسخرها لخدمته، أو يفتك

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب، رقم: ٣٠١٥.
(٢) سنن أبي داوود، أول كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، رقم: ٢٦١٤.
(٣) تفسير الطبري (٣/ ٥٦٣).
(٤) تاريخ واسط (ص: ١٦٥) عالم الكتب، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ

بها إن شاء. وهذه النعمة وهذه الميزة التي ميز الله بها الإنسان عن سائر الحيوانات ـ أعني السيطرة المطلقة عليها ـ مشروطة، ومضبوطة بأحكام شرعية تلزمه التصرف فيها وفق المصلحة المقرونة بالرحمة، فلا يجوز للإنسان أن يوظف هذه الميزة والهبة الربانية وفق هواه، بل لابد له من التقيد بشرع الله الذي «كتب الإحسان على كل شيء»[1]،

فالله سبحانه وتعالى لما أعطى هذه القدرة وهذه القوة للإنسان لم يجعلها قوة متفلتة من القيود والضوابط، بل قيدها وأحكمها، وجعل كل تصرفاته فيها منوطة بالمصلحة مقيدة بالرفق، ومن ثم يكون الإنسان ملزما برحمة هذه الحيوانات العجماوات التي حكمه الله فيها، وذللها له وغلبه عليها، بذلك جاءت النصوص الشرعية، وصدرت الأحكام الفقهية.

-**فمن رحمة الإسلام بالحيوانات:** أنه حرَّم ومنع سجنها وحبسها بدون طعام وإهمالها حتى الموت، وشدد الوعيد في ذلك، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عُذّبت امرأةٌ في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها؛ إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[2].

ومن رحمة الإسلام بالحيوان أن حرم تجويعها وإتعابها في العمل وتكليفها فوق طاقتها، فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حَنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم، فمسح ذفراه، فسكت، فقال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل»؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله،

---

(١) صحيح ابن حبان – مخرجا (١٣/ ٢٠٠). عن شداد بن أوس، قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

(٢) البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم: ٢٣٦٥، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم: ٢٢٤٢.

فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكي إلي أنك تجيعه، وتدئبه»[١]. أي: تكده، وتتعبه. كما أنه رتب على رحمتها المغفرة والرحمة والأجر الجزيل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا، فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر»[٢]. وفي رواية: أنها امرأة من بغايا بني إسرائيل، سقت الكلب، فغفر الله لها ذلك[٣].

وعن سراقة بن جعشم، أنه قال: قلت: يا رسول الله، الضالة تغشى حياضي، وقد ملأتها ماء لإبلي، فهل لي من أجر أن أسقيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، في سقي كل كبد حرى أجر لله عز وجل»[٤].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ، فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ، فَجَاءَ النبي – صلى الله عليه وسلم — فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»[٥].

وعلى هذا النهج سار أصحابه، فقد ذكر أهل التاريخ: أن حمامه وضعت بيضها في خيمة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو قائد الجيوش بمصر، وقد

---

(١) رواه أحمد في مسنده مسند أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، رقم: ١٧٥٤، وسنن أبي داود، أول كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، رقم: ٢٥٤٩.

(٢) البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم: ٢٣٦٣، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم: ٢٢٤٤.

(٣) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم: ٣٤٦٧، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم: ٢٢٤٥.

(٤) رواه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، رقم: ١٧٥٨٧.

(٥) سنن أبي داوود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم: ٢٦٧٥.

عزم على الرحيل، فأمر عماله أن يخلعوا الخيمة، فلفت أنظارهم عش حمامة فيه البيض لم يفرخ، فأخبروا الأمير بذلك، فأمر بترك الخيمة منصوبة، وقال: «لا تزعجوا طائراً نزل بجوارنا، فحل في أمن، أجلو العمل حتى تفرخ وتطير». إنها رحمة الإسلام ورفقه. وإذا كان الإسلام أجاز الانتفاع بلحوم الحيوانات وجلودها عن طرق ذبحها أو صيدها، فقد ربط ذلك كله بالرحمة والمصلحة، وحرم قتل الحيوانات عبثا وبدون حاجة لها.

عن صالح بن دينار عن عمرو بن الشريد، قال: سمعت الشريد يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب: إن فلانا قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعة»[١].

وحتى في الحالات التي جوز فيها قتل وذبح الحيوان فإنه أمر باستحضار الرحمة والرفق في تلك اللحظة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أضجع شاة، يريد أن يذبحها، وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تميتها موتات، هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها[٢].

عن معاوية بن قرة عن أبيه: قال رجل يا رسول الله: إني لأذبح الشاة، فأرحمها، أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها، قال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله مرتين»[٣]. عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة»[٤].

هذه رحمة الإسلام ورفقه بالحيوان، تستحضر في كل الحالات والأحوال حتى في حالة الذبح.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، رقم: ١٩٤٧٠. قال محقق المسند: إسناده ضعيف لجهالة صالح بن دينار.

(٢) المستدرك (٤/ ٢٥٧)، هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. تعليق الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري.

(٣) الأدب المفرد (ص: ١٣٦).

(٤) المعجم الكبير (٨/ ٢٣٤).

-رحمة الإسلام لعالم النبات:

إن الإسلام ينظر لعالم النبات، بل والجماد على أنه خلق من خلق الله، يعبد الله ويسبحه، ويسجد له بالطريقة التي يعلمها سبحانه وتعالى، فهو ليس شيئاً ميتاً... قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[1] ، وقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[2]

فالمؤمن وسائر النباتات والجمادات يؤدون نفس الوظيفة، ويشتركون في عبادة رب واحد، ومن ثم يكون أي اعتداء عليها، اعتداء على وظيفتها التي خلقها الله لها، ويدخل في الإفساد في الأرض الذي حرمه الله تعالى، وقد قال سبحانه في شأن المفسدين في الأرض: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[3]، وقال في النهي عن ذلك: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[4]

وفي هذا الإطار جاءت الأحكام الإسلامية، والأحاديث النبوية الدالة على ذلك، فقد حرم الإسلام إفساد الغطاء النباتي، وقطع الأشجار، وهدم المنشآت بدون حاجة لها.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُبْشِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»[5].

سُئِلَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدِيثُ مُخْتَصَرٌ، يَعْنِي: مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً فِي فَلاَةٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا ابْنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَبَثًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا، «صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ».

---

[1] سورة الحج، الآية: ١٨

[2] سورة الرحمن، الآية: ٦

[3] سورة البقرة، الآية: ٢

[4] سورة الأعراف، الآية: ٥٦

[5] سنن أبي داود، كتاب الآداب باب في قطع السدر، رقم: ١٧١.

وقال الملا على القاري: «ولعل وجه تخصيصها، إن ظلها أبرد من ظل غيرها، وإلا فالحكم غير مختص بها، بل عام في كل شجر يستظل به الناس والبهائم بالجلوس»(١).

وقد حرم الإسلام قطع الأشجار حتى في حالة الحرب، كما مر معنا قبل قليل، فقد ذكرنا حديث رسل الله صلى الله عليه وسلم في غزوة مؤتة، وهو يعطي التوجيهات الأخيرة لجيشه، ومما جاء في ذلك: «... ولا تحرقن نخلاً، ولا تقلعن شجرًا، لا تهدموا بيوتًا».

وذكرنا كذلك توجيهات خليفته الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي قال لجيوشه المتوجهة لفتح الشام: «لا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيرًا، إلا لمأكله». وفي هذا رحمة لعالم النبات بالحفاظ عليه، وعدم قلعه، أو إحراقه.

وبهذا يتُبين بأن رحمة الإسلام عامة وشاملة لكل الخلق، فالرحمة والرفق والتلطف بالبلاد والعباد سمة بارزة في الإسلام حاضرة في أحكامه وآدابه وعادات وتقاليد المتمسكين به يمارسونها بأريحية وعفوية لا تكلف فيها، وما ذلك إلا لكونها جزأ من حضارة الإسلام وثقافة أهله، بل ظاهرة لا تخطئها عين الملاحظ المنصف.

ومن أبرز تجليات رحمة الإسلام بسائر العوالم وقف المسلمين وتحبيس الأموال والعقار على أصناف المحتاجين من الناس والبهائم والطيور، فقد أوقف المسلمون الأربطة والتكايات يأوي إليها الفقراء والأيتام، وأوقفوا المستشفيات للمرضى، ووجدت أوقاف لتجهيز البنات الفقيرات إلى أزواجهن. ومن أغرب ما وجد في هذا الباب أوقاف الأواني، ذلك أن بعض الخدم قد ينكسر بين يده شيء ويخشى من زجر سيده، فيذهب إلى صاحب وقف الأواني، فيعطيه ثمن ما انكسر بيده، وبذلك تصان حرمة الغلام، ويجبرخاطره، ويفلت من زجر

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٢٣)

ونهر سيده. والأغرب والأعجب مما سبق: أن المسلمين خصصوا جزءا من أوقافهم للحيوانات،[١] ومن ثم أوقفوا على الكلاب والقطط المريضة، وأوقفوا على الخيول والبغال والحمير التي لم تعد قادرة على الخدمة.

هذه بعض تجليات الرحمة في المجتمعات الإسلامية، مما يدل على أن الرحمة في الإسلام شاملة لكل العوالم والأجناس، وأنها جزء من حضارة الإسلام وفكره وثقافته.

وهذه الرحمة التي نراها في الكون برمته تتراحم بها العوالم فيما بينها، هي جزء واحد من رحمة الله الذي له «مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[٢].

إنه الرحمن الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة، ورحمته سبقت غضبه، ورحمته وسعت كل شيء، وبعث نبيه بالرحمة، وجعله رحمة للعالمين.

ولله در ابن القيم لما قال: «وبالرحمة خلق خلقه، ولها خلقهم»[٣].

وقال: «وخلق الخلق ليرحمهم لا ليعاقبهم، والعفو أحب إليه من الانتقام، والفضل أحب إليه من العدل، والرحمة آثر عنده من العقوبة.... إلى أن قال: خلقهم ليرحمهم، ويحسن إليهم، وينعم عليهم»[٤].

---

[١] اختلف الفقهاء في الوقف على الحيوانات، فذهب المالكية وبعض الشافعية إلى جوازه وذهب الحنابلة وبعض الشافعية إلى عدم جوازه. ولعل الراجح الجواز لقوله ﷺ:"وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر" متفق عليه ولقوله كذلك: "من حفر ماء لم يشرب منه كبد حرى [عطشى] من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة" صحيح رواه ابن ماجة

[٢] جزء من حديث متفق عليه، واللفظ لمسلم. أخرجه في كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم ٢٧٥٢

[٣] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح(ص: ٢٧٣) الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

[٤] مختصر الصواعق المرسلة ٢٢٣/١. دار الندوة الجديدة

فهرس المصادر والمراجع

١-الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض
٢-الأشباه والنظائر للسبكي دار الكتب العلمية
٣-إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم دار المعرفة — بيروت
٤-أنوار البروق في أنواء الفروق لأبي العباس شهاب الدين القرافي عالم الكتب بيروت.
٥-أنيس الفقهاء قاسم بن عبد الله القونوي الرومي الحنفي دار الوفاء
٦-البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي دار الكتب العلمية — لبنان
٧-تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون المكتب الإسلامي
٨-تاريخ واسط عالم الكتب، بيروت الطبعة: الأولى
٩-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور مؤسسة التاريخ العربي
١٠-التعريفات للجرجاني دار الكتاب العربي - بيروت
١١-تفسير ابن جرير الطبري دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان
١٢-تفسير البيضاوي دار الفكر
١٣-التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي مكتبة الإمام الشافعي - الرياض
١٤-حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت
١٥-حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام للدكتور صالح بن حسين العايد دار كنوز إشبيليا.
١٦-الرسالة القبرصية دار ابن حزم
١٧-روح المعاني دار إحياء التراث العربي
١٨-سنن أبي داود دار الكتب العلمية
١٩-السنن الكبرى للنسائي طبعة دار الرسالة
٢٠-صحيح البخاري المطبعة الأميرية
٢١-صحيح مسلم مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة
٢٢-الكامل في التاريخ لابن الأثير دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان
٢٣-كتاب الكليات لأبى البقاء الكفوي مؤسسة الرسالة
٢٤-الكشاف للزمخشري دار إحياء التراث العربي

٢٥- كنز العمال مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩
٢٦- مختصرُ استدرَاك الحافِظ الذّهبي على مُستدرَك أبي عبد اللهِ الحَاكم لابن الملقن سراج الدين بن علي الشافعي المصري الناشر: دَارُ العَاصِمَة، الرياض
٢٧- لسان العرب لابن منظور دار صادر - بيروت
٢٨- مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم دار الندوة الجديدة
٢٩- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح دار الفكر، بيروت - لبنان
٣٠- المستدرك للحاكم دار الكتب العلمية - بيروت
٣١- مسند الإمام أحمد بن حنبل مؤسسة الرسالة
٣٢- المعجم الكبير للطبراني نشر مكتبة ابن تيمية
٣٣- معجم مقاييس اللغة لابن فارس دار الفكر
٣٤- الموافقات للشاطبي دار المعرفة